بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه ومَن اتبع هداه .

وبعد ...

فليس أبغض إلى نفسى من استعمال الكلمات التى تلوكها ألسنة الماركسيين وتبتذلها أقلامهم ، وتروج فى صحفهم وكتبهم ونشراتهم .

ومن ذلك كلمة « الحتمية » التى تكاد تكون عنواناً لمذهبهم ، وعَلَماً على اتجاههم الذى قد يسمى « الحتمية التاريخية » .

ولكنى استعملتُ هذه الكلمة « حتمية الحل الإسلامى » من باب « المشاكلة » كما يقول علماء « البديع » فى البلاغة العربية . على نحو ما جاء فى القرآن من مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ (١) .. ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٣) . فوصف الله سبحانه بالمكر والخداع والاستهزاء لم يكن إلا مشاكلة ومقابلة لوصف المنافقين بهذه الأوصاف .

وكذلك استعملتُ هنا لفظ « الحتمية » مشاكلة ومقابلة للذين ينادون فى عالَمنا العربى بما سموه « حتمية الحل الاشتراكى » .

ولا أعنى بحتمية شىء ما أنه سيقع لا محالة ، فإن هذا تهجم سخيف على المجهول ، لا على الإيمان فحسب ، بل على العلم أيضاً ، فعلم القرن العشرين

---

(١) الأنفال : ٣٠ (٢) النساء : ١٤٢ (٣) البقرة : ١٤ - ١٥

يعرف « الاحتمالات » أكثر مما يعرف « الحتميات » ، حتى نتائج العلوم الطبيعية نفسها غدت فى نظر العلم اليوم تقريبية لا يقينية . وهذا ما اعترف به أقطاب العلم أنفسهم [١] .

إن قولنا بحتمية أمر ما ، لا يعنى الإخبار بما سيقع حتماً ، بل يجب أن يقع .. أو بما تدل الظواهر وطبيعة الأشياء والأحداث أنه ضرورى الوقوع ، وهذا هو الذى نملكه باعتبارنا بَشر نحترم أنفسنا وعقولنا .

والذين يعتنقون مبدأ « الحتمية التاريخية » وينادون بحتمية « التطور » لا ينتظرون حتى يأتى التطور ، بل يعملون ويكافحون ، ويتخذون كل الوسائل والأساليب - مشروعة وغير مشروعة - للوصول إلى مآربهم ، فلماذا لا يريحون أنفسهم من مشقة العمل حتى يوافيهم التطور المحتوم إن كانوا صادقين ؟

فأنا - وإن استعملتُ لفظ « الحتمية » - لا أريد منه ما يريده الماركسيون من الحتمية التاريخية ، فالحتمية بهذا التفسير خطأ يخالف الصواب من ناحية ، ووهم يخالف الواقع من ناحية أخرى ، وقد بيَّنت الأحداث التى وقعت بعد ماركس . أن « ماركس » قد أخطأ الحساب ، وأن حتمياته لم تتحقق كما ظن ، بل وقع ما يخالفها ، كما بيَّن ذلك الدارسون للماركسية .

إنما أردتُ من الحتمية أن كل الظروف والملابسات والوقائع - فى بلادنا العربية خاصة ، وفى عالمنا الإسلامى عامة ، لمن درسها دراسة علمية موضوعية - تحتم السير إلى الحل الإسلامى ، بعد أن فشلت كل الحلول المستوردة وتخبطت كل الأنظمة المصطنعة ، وباءت بالعجز والخيبة كل المذاهب والاتجاهات ، ليبرالية واشتراكية ، وأصبح تغييرها أمراً لا مفر منه .

وهذا ما أحسَّت به جماهيرنا العربية المؤمنة ، ونادت به ، بعد نكبة يونية (حزيران) ١٩٦٧ : أن لا حل ولا علاج إلا بالعودة إلى الإسلام .

---

(١) انظر كتاب « الإيمان والحياة » للمؤلف ص ٣٣١ - ٣٣٣

إن أهدافنا السياسية الكبرى - فى العالم العربى كمثال - لم تتحقق ، ولم نقترب منها بل زدنا عنها بُعداً .

فالأمل فى الوحدة العربية قد ضعف نتيجة للخلاف العقائدى بين المحافظين من دعاة اليمين ، والثوريين من دعاة اليسار ، وهو خلاف لا يُرجَى زواله إلا بزوال هذه الأفكار الدخيلة نفسها ، من يمين ويسار . ومعذرة للقارىء من استعمال هذه التسميات الدخيلة التى لم تنبت فى تربتنا . بل إن اليساريين الثوريين من العرب الذين ينتمون إلى حزب عقائدى سياسى واحد . لم يستطيعوا أن يتحدوا فيما بينهم ، بعد وثوبهم على الحكم فى بلدين متجاورين ، رغم وحدة الشعارات واللافتات ، التى ثبت عجزها أمام اختلاف الولاءات والارتباطات ، واختلاف المطامع والشهوات .

وقضية فلسطين لم تُحَل ولم تقترب من الحل ، بل زادت تعقيداً ، نتيجة للحرب التى قادها الثوريون العرب فى ٥ يونية (حزيران) ١٩٦٧ ، وكانت عاقبتها ما نعلم : نكبة أدهى وأمرّ من النكبة الأولى (١٩٤٨) ، وبعد تسعة عشر عاماً منها ، مضت فى التأهب والاستعداد ليوم الثأر ، ويوم التحرير ، فلما جاء اليوم الموعود ، لم نجد وراء الأكمة شيئاً ، ولم نجد تحت القبة « شيخاً » كما يقولون ، وصدق على العرب المثل القائل : « أطال الغيبة وأتانا بالخيبة » !

وهكذا فشلت الثورية اليسارية العربية فى سنة ١٩٦٧ ، كما فشلت من قبلها الليبرالية اليمينية العربية فى سنة ١٩٤٨

وقضية الحرية السياسة فى العالم العربى فى أزمة آخذة بالخناق ، سواء فى ذلك البلاد التى تتخذ شكل النظام الديمقراطى الدستورى ، والبلاد التى تتخذ النظام الاشتراكى الثورى ، وإن كانت الثانية أشد ضغطاً على الحريات وأكثر فتكاً بها ووأداً لها ، بناء على فلسفة الاشتراكية وتراثها العالمى فى سلب الحرية السياسية باسم الحرية الاجتماعية ، وبغير ذلك من المبررات والأسماء التى لا تعجز عن اصطناعها !

وكذلك قضية الرخاء والازدهار الاقتصادى ، لم تتم على النحو الذى كان

مرجواً منها ، فلا تزال الطبقات الفقيرة فى مجتمعنا ، تشكو العوز والفاقة وضيق العيش وغلاء الأسعار ، وعدم تكافؤ الفرص ؛ وكل الذى حدث فى بعض البلاد ، أن زالت طبقة مترفة قديمة وورثتها طبقة جديدة مثلها أو أسوأ منها .

وهكذا لم تشبع الجماهير من جوع ، ولم تأمن من خوف .

أما أمراضنا الأخرى من بلبلة الفكر ، وسوء الأخلاق ، وفساد الذمم ، وضعف الوازع ، واضطراب الأسرة ، وتفكك المجتمع ، وما شابه ذلك فحدِّث عنه ولا حَرَج .

كل هذه النتائج تحتم علينا أن نسير إلى الإسلام لنحل به عُقَد حياتنا ، ونعالج به مشكلاتنا ، ونحقق فى ظله أهدافنا الكبرى ، وكفى ما ضاع من عمر أمتنا فى التجارب والتخبطات .

فإذا كنا « عرباً » فهذا الحل هو أليق الحلول بكرامتنا القومية ، لأنه الحل النابع من عقائدنا وتراثنا وأرضنا .

وإذا كنا « مسلمين » فهذا الحل هو مقتضى إسلامنا ، وموجب إيماننا ، ولا يتحقق لنا إسلام ولا إيمان بغير العودة إليه ، والإصرار عليه . فوراءه فلاح الآخرة والأولى .

وإذا كنا بَشراً عقلاء . نأخذ وندع وفقاً لتفكير عقولنا ، واهتداءً بمصلحتنا ، فهذا الحل هو الذى ينادى به العقل المستقل ، والفكر الراشد . وهو - من ناحية منطقية بحتة - الحل الذى لم يُجَرَّب بعد فى ديارنا فى هذا العصر ، فلا بد أن تتاح له الفرصة كغيره ، ليحكم ويسود ، ويوجِّه ويقود . هذا إلى أن أمتنا قد جرَّبته من قبل فأتى بأفضل النتائج وأطيب الثمرات .

وإذا كنا نؤمن بالديمقراطية السياسية والنزول على حكم الأغلبية ، فإن جماهير شعوبنا لم تكفر يوماً بعدالة أحكام ربها ، ولم تتخل يوماً عن قرآنها

رمحمدها . لم تشك يوماً فى عظمة إسلامها ، وكل يوم يمر يزيدها إيماناً بخلود هذا النظام الإلهى العادل ، وإحساساً بضرورة العودة إليه [١] .

وإذا كنا نؤمن بمنطق الحوادث وسير التاريخ ، فإن كل مستقرىء للصراع القائم فى ديار العرب والإسلام ، متتبع للعوامل التى تُسيِّر الحوادث وتصنع التاريخ ، يؤكد أن الدور القادم ليس لليسار ولا لليمين ، ولا للثوريين ولا للرجعيين ، من دعاة التبعية للشرق أو الغرب ، بل للإسلام الصحيح ، الشامل المتكامل ، المصفى من الشوائب والزوائد .

بل إن المستقرىء للصراع الدائر فى العالم ، والأزمة الروحية والنفسية التى يمر بها ، والتخبط الاجتماعى الذى يرزح تحته ، والتحلل الخُلُقى الذى يشكو منه عقلاؤه - يهتدى إلى أن الاتجاه الذى لا بد أن يسود العالَم هو الإسلام . فقد أفلس الغرب فى قيادته ، وعجز عن حمل الأمانة . والعالَم اليوم فى حاجة إلى رسالة جديدة تحمل حضارة جديدة ، حضارة عالَمية إنسانية ، أخلاقية ربانية ، لا شرقية ولا غربية ، حضارة تجمع بين الإيمان والعلم ، وتمزج بين المادة والروح ، وتوفق بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع . وليس فى الغرب مَن يحمل هذه الرسالة ، ويؤدى للعالَم هذه الأمانة ، لا فى المعسكر الرأسمالى ، ولا فى المعسكر الاشتراكى ، وكلاهما فرعان لشجرة واحدة ، هى الشجرة الملعونة فى القرآن وفى كل كتب السماء : « شجرة المادية » الخبيثة .

إنما صاحب هذه الحضارة المنشودة ، وهذه الرسالة الموعودة هو الإسلام ..

---

(١) يكفى أن نذكر هنا مثالاً واحداً : إن الذى يقرأ الصحف المصرية بعد تصفية مراكز القوى أو بعضها فى مايو ١٩٧١ ، وإتاحة شىء من الحرية للناس ، ويطالع ما دار فى مناقشات لجان الدستور ، وفى مؤتمرات المحافظات ، وفى كلمات الوفود المؤيدة للتغيير ، والمطالبة بالمزيد من الحريات العامة ، ويستمع إلى آراء المواطنين فرادى وجماعات ، يجد شبه إجماع على ضرورة اتخاذ الشريعة الإسلامية أساساً للقوانين ، واتخاذ القِيَم الإسلامية فى الإيمان والأخلاق أساساً للتوجيه . وهذا مع غيبة الحركة الإسلامية رسمياً عن الميدان .

الإسلام الذى أنشأ من قبل خير أمة أُخرجت للناس ، وصنع أمثل حضارة عرفها التاريخ .

بَيْدَ أن الشىء الذى نفتقده وتفتقده البَشرية معنا هو وجود « أمة » تتمثل الإسلام وتمثله ، وتتبناه منهجاً ونظاماً لحياتها ، وتتقدم به إلى العالَم رسالة هداية وإنقاذ .

وقد آن للشعوب العربية والإسلامية أن تتحرر من التبعية للغرب والشرق ، وأن ترفض كل حل مستورد ، وكل منهج دخيل ، وأن تتخذ من الإسلام الصحيح حلاً لمشكلاتها ودستوراً لحياتها .. فقد جاءتهم النُذُر ، وجاءهم من الأحداث والأنباء ما فيه مزدجر .

وآن لقادة هذه الشعوب وحكامها ، وأهل الحل والعقد فيها ، أن يدركوا هذه الحقيقة الكبيرة ، ويعتصموا بالشجاعة الأدبية ، ويعلنوها صريحة مدوية : إننا لسنا عبيداً لليمين ولا لليسار ، ولسنا ذيولاً للرأسمالية ولا للاشتراكية ، ولسنا أتباعاً للشرق ولا للغرب ، إنما نحن مسلمون وكفى . ولا نرضى بغير الإسلام عقيدة ونظاماً ورابطة . وبهذا يصلون حاضر الأمة بماضيها ، ويزيلون التناقض بين واقع الأمة وبين ضميرها وعقيدتها .. وبهذا يستحقون رضوان ربهم وتحية شعوبهم وإعجاب العالَم بهم ، ويفوزون بخيرى الدنيا والآخرة جميعاً : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ..

إن شعوبنا العربية الإسلامية لم تزل خامتها إسلامية ، ولم يزل الإسلام أقوى شىء فى وجودها ، ولم تزل بقلوبها وعواطفها مع الإسلام ، ولكنها فى حاجة إلى القيادة المؤمنة التى تعرف كيف تخاطب هذه الأمة وتحركها وتستخرج أقصى ما فيها من طاقات وإمكانات مذخورة . ويوم توجد سيتغير ميزان القوى فى

---

(١) فصلت : ٣٣

العالَم ويتحول اتجاه التاريخ . وهذا ما يقوله - ويحذِّر منه - الدارسون المتيقظون من الأجانب والمستشرقين .

وآخر ما قرأناه فى ذلك ما كتبه المستشرق البريطانى « مونتجمرى وات » فى جريدة « التايمز » اللندنية - فى مارس سنة ١٩٦٨ - من مقال قال فى نهايته :

« إذا وُجِد القائد المناسب الذى يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام ، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى فى العالَم مرة أخرى » .

وفى هذا البحث محاولة لبيان جناية الحلول المستوردة - الليبرالية والثورية - على أمتنا ، وكيف عوَّقت نهضتها ، وسارت بها فى غير الاتجاه الصحيح .. كما تُبيِّن ضرورة الاتجاه إلى الحل الإسلامى باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ هذه الأمة والحفاظ على وجودها .. ملقياً الضوء على معالم هذا الحل ، ومزاياه وثمراته ، وشروطه . والسبيل إلى تحقيقه . ثم دفع شبهات المرتابين والمشككين فيه . وأخيراً بيان مَن هم أعداء الحل الإسلامى وما دوافعهم لعداوته ، وموقفنا منهم .

وأسأل اللّه عَزَّ وجَلَّ أن ينفِّع بهذا البحث ، وأن يفتح له العقول والقلوب ، وأن يهيىء لأمتنا من أمرها رشداً . وأن يجعل يومها خيراً من أمسها ، وغدها خيراً من يومها . آمين ..

الدوحة : جمادى الأولى ١٣٩١ هـ - تموز (يوليو) ١٩٧١ م

د . يوسف القرضاوى

* * *